مالك يوم الدين

السبع المثاني:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: 87]، وقد رجَّح أكثر العلماء أن المراد بالسبع المثاني هو سورة الفاتحة لأن كل شيء ورد في آياتها مثنى مثنى.

الاستعاذة مثنى والرحمة مثنى والألوهية والربوبية مثنى، والحمد والشكر لله مثنى، والعالمين مثنى، والرحمن الرحيم مثنى، والعبادة والاستعانة مثنى، والفرق الضالة مثنى، وسنستعرضها واحدة واحدة في أجمل لحظات نقضيها مع سورة الفاتحة.

سورة الفاتحة:

نبدأ الفاتحة بتلاوة الاستعاذة، والاستعاذة مثنى لأنها تقتضي وجود مستعيذ ومستعاذ منه، فالمستعيذ هو الإنسان والمستعاذ منه هو الشيطان الرجيم والشيطان الرجيم مثنى، فكلاهما صفة لإبليس بعد عصيانه. ثم نبدأ بتلاوة الفاتحة فنجد أن البسملة آيتها الأولى مثنى، ففيها الابتداء باسم الله، والاستعانة

بالرحمن الرحيم لتلاوة القرآن الكريم، والرحمن الرحيم مثنى فكلاهما من الأسماء الحسنى لله عزَّ وجلَّ، ومع ذلك فقد وردا أيضاً مرتين، مرة في البسملة ومرة في الآية الثالثة؛ وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180] ونحن عندما نتلو البسملة والآية الثالثة من السورة فإننا ندعوه باسمين من الأسماء الحسنى: الرحمن والرحيم.

وصفات القوة والسيادة لله عزَّ وجلَّ وردت في السورة مثنى أيضاً، فهو سبحانه الله ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2]، و﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: 4] مثنى أيضاً فهي تعني أنه رب الإنس والجن، و﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ مثنى، لأن من يملك يوم الدين لا يملك غيره يوم الدنيا، فهو الملك والمالك للدنيا وليوم الدين.

العبادة والاستعانة:

عندما نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فهذا يعني أننا نعبدك وحدك، لا إلٰه سواك ونترك كل عبادة لما عداك مما يزعمه الضالون والمشركون آلهة.

و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي نطلب العون منك، ونترك الاستعانة بغيرك مما يستعين به الناس، سواء في ذلك المشركين ممن جعلوا لله أنداداً وشركاء و الضالين الذين يستنجدون بالقبور والأموات، ويظنون أنهم يحسنون صنعاً. لذلك كما تكون العبادة

لله وحده يجب أن تكون الاستعانة بالله وحده أيضاً؛ فالكل فقير إليه محتاج لإعانته ومساعدته وإلا لم يهتد إلى الصراط المستقيم.

الفرق الضالة:

والفرق الضالة أيضاً مثنى، فالمغضوب عليهم هم اليهود، والضالين هم النصارى، فاليهود يعلمون الحق والصواب ومع ذلك لا يكتفون برفضه وإنكاره بل يعملون على محاربته، ويفسدون في الأرض لإضلال الناس وإبعادهم عن دينهم، أما النصارى فقد اتبعوا رؤوس الجهالة وجعلوا لله عزَّ وجلَّ ولداً، بل جعلوا الله ثلاثة في واحد، أعاذنا الله وإياكم من هذا الضلال.

الحمد والشكر:

الحمد هو الثناء على المُنْعِم، والشكر هو الثناء على المنعم أيضاً فلماذا نقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ ولا نقول: الشكر لله رب العالمين؟ نحن لا نقول ذلك لأن بين الحمد والشكر فرقاً كبيراً.

الحمد ثناء على المنعم بعد إنعامه، ونعم الله سابقة وسابغة ولا يحصيها إلا هو، أما الشكر فيسبق الإنعام أو يكون في أوله، ولذلك عندما ذكر الله الشكر، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7] فالشكر يتضمن طلب الزيادة، وقال

تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: 10]؛ فالحمد آخر الدعاء.

دعاء أهل الجنة:

قال تعالى واصفاً ما ينعم به على أهل الجنة: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [قَ: 35]، فالله سبحانه وتعالى أعطاهم المشيئة فلا يتمنى أحدهم شيئاً أو يذكره في نفسه أو يخطر في باله حتى تكون أمنيته متحققة أمامه فوراً، كن فيكون، ولذلك عندما ذكر كلامهم قال: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: 10]، وجاء في الحديث الشريف أن الله عزَّ وجلَّ يتجلى لعباده في الجنة فيسألهم، وهو أعلم بحالهم: «هل لأحد حاجة فأقضيها له؟ فيقولون: ألم تبيِّض وجوهنا، ألم تبعدنا عن النار، ألم ترزقنا اليوم من الطيبات، ليس لنا اليوم حاجة» ثم يحمدون الله على أنعامه التي لا تحصى، أما الحمد لله رب العالمين، فترفع الحجب، فلا يعطى أهل الجنة شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجه ربهم الكريم».

عزيزي القارىء:

هل تجد من متعة أعظم من أن تكون في الجنة مع الرسول ﷺ وصحابته الأبرار ثم يمتعك الله عزَّ وجلَّ بعد ذلك

برؤية وجهه الكريم؛ وقد وصف الله عزَّ وجلَّ أهل الجنة في كتابه العزيز فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: 22 - 23].

أول القرآن:

إن أول آية في القرآن الكريم هي ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ يليها قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾ وآخر دعوى أهل الجنة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ولمَّا كانت «رب العالمين» تحمل معاني القوة والسيادة فقد سبقها قوله: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ في البسملة، ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ في الآية التالية بعد الحمد.

رب العالمين:

رب العالمين يعني رب كل العوالم وكل المخلوقات في الأرض والسماوات، ما نراه ونعرفه وما لا نراه ولا نعرفه؛ والرسول ﷺ قد وصفه الله عزَّ وجلَّ بأنه رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: 107] فهو كما وصفه عزَّ وجلَّ، رحمة للخلق جميعاً؛ ولذلك جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، وصفوته من خلقه لهذه الرحمة التي تملأ قلبه.

حكاية المبتلى:

كان الإمام مالك رضي الله عنه يطوف حول الكعبة فوجد رجلاً أجذم، مُقْعداً أعمى يدعو الله، فماذا كان يقول في دعائه؟

هل تتصور رجلاً مصاباً بالجذام، وهو أشد الأمراض أذًى للإنسان، يأكل المرض جلده ولحمه، وهو بالإضافة إلى ذلك، مشلولاً مقعداً لا يقدر أن يتحرك من مكانه إلا إن تطوع أحد لحمله ونقله، وهو فوق كل ذلك قد ذهب بصره، فماذا يمكن أن يكون دعاءه؟

هل كان يدعو الله أن يشفيه مما هو فيه؟

هل كان يدعو الله أن يعيد إليه بصره؟

هل كان يدعو الله أن يخلصه من الجذام الذي يأكل لحمه؟

أبداً...

لقد كان دعاؤه: «اللهم لك الحمد على ما أوليتني من نعمة!».

عندما سمع الإمام مالك دعاءه وقف قربه وسأله:

- أي نعمة أنعم بها عليك الله تحمده عليها، وأنا أرى بك ما أرى؟

قال الرجل: انصرف عني، إنما أعطاني قلباً أذكره به».

انظر إلى الجمال والبساطة، انظر إلى رضاه بقضاء الله وقدره.

انظر إلى صبره على ما ابتلاه الله به من بلاء وأمراض.

انظر إلى شكره لله على نعمائه.

ثواب الصابرين:

هذا هو الحل، وهذا هو الحمد الحقيقي، أن نحمد الله في السراء والضراء ولا يغيرنا الاختبار، فمن ابتلاه ربه فصبر أعطي أجر الصابرين وهو أجر مضاعف أضعافاً مضاعفة.

عندما تشكر الله سبحانه وتعالى وأنت ترفل بتمام الصحة والغنى، فأي فضل لك في ذلك، لكن عندما تشكره في حال البلاء والاختبار فهذا يعني أنك تقدر نعم الله حق قدرها، وتعرف أنك إن فقدت نعمة منها فإن لديك من نعمه غيرها الكثير؛ ولذلك يقول الله عزَّ وجلَّ في الحديث القدسي، لملائكته: «هذا عبدي أبتليه فيحمدني، أختبره فيشكرني، وعزَّتي وجلالي لأنعمنَّه نعيماً يتحدث عنه الخلائق أجمعين».

لماذا ينعمه هذا النعيم؟ لأنه رغم الابتلاء والاختبار، رغم المرض والضعف الذي أصابه لم يتوقف عن الحمد، ولم يتغير قلبه عن الرضا بما قسمه الله له، ولم يكف لسانه عن شكر أنعم الله.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «عجبت لأمر المؤمن فأمره كله خير، إن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له».

فالحمد أعظم هدية وأكبر نعمة يمكن أن يهبها الله لإنسان أو لأحد من خلقه، وأنت إذا أعطيت لساناً حامداً وقلباً شاكراً وفؤاداً ذاكراً وعقلاً منقذاً فأنت على خير عظيم ما بعده خير.

وهل يقدر إنسان أن يحصي نعم الله أو يحيط بها شكراً؟، قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13].

ثواب الشكر:

عندما تقدم هدية أو عطية لصديق أو عزيز أو محتاج، فإن أول شيء يفعله بعد أن يتسلم هذه الهدية أو العطية منك هو أن يقول لك شكراً.

هذا الشكر يعتبر مكافأة لك على ما أعطيته، والمكافأة تعني تساوي الفريقين في الفضل والخير.

لكن الله عزَّ وجلَّ لا يرضى أن يتساوى معه أحد من خلقه ولذلك إذا شكره عبده على نعمة أنعم بها عليه، أعطاه ووهبه نعمة جديدة وكلما شكر العبد نعمة جدد الله له العطاء بنعمة جديدة، ولذلك قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: 7] فالله يعطي والعبد يشكر، وعطايا الله ونعمه أكثر وأعظم من أن نحيطها بالشكر، مهما بالغنا بالشكر والحمد والتسبيح.

الملك والمالك:

أنت تقبض مبلغاً من المال فتظن أنك أصبحت مالكه وحدك، فهل سألت نفسك عَبْرَكَمْ يدٍ مرَّ قبل أن يصل إليك، وكم يد سيعبر بعدك عندما تدفعه ثمناً لأشياء تحتاجها أو طعام تأكله أو لباس يسترك ويزينك أو أي من أبواب الإنفاق التي صارت لا تعد في عصرنا؟

وعندما تشتري أرضاً أو داراً أو تبني قصراً تظن أنك صرت المالك وحدك له، فهل سألت نفسك وسألت هذه الأرض التي تقف عليها فخوراً وتتطلع في جنباتها مسروراً كم وقف فوقها من بشر مثل وقفتك هذه، فظنوا كما ظننت وطمعوا كما طمعت ثم مضوا إلى حيث نمضي جميعاً بانتظار يوم الحساب؟

هل فكرت إلى من ستؤول بعدك؟

قد تقول لأبنائي وأحفادي، فما أدراك بما سيحل بهم بعدك؟ ألا تنظر إلى القصور التي صارت خراباً، والقلاع التي أضحت يباباً والحصون التي أضحت ولا يسكنها غير البوم؟

ألم تزر المتاحف فترى ما خلفوا وقد صار فرجة لمن جاء بعدهم من أقوام.

ألم تر قبورهم كيف ينبشها الباحثون والدارسون وعظامهم كيف تحمل إلى المختبرات للدرس والفحص؟

أنت ترى هذا كله وتظن أنك في مأمن ولن يصيبك ما أصاب الذين من قبلك.

تظن أنك صرت المالك وحدك، مع أنك مستخلف فقط لفترة طالت أم قصرت فستنقضي ليأتي بعدك من يظن مثل ظنك. عندما نقول في سورة الفاتحة ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ فنحن نقر أن المالك الحقيقي لهذه الأرض ولهذا الكون بما فيه ومن فيه هو الله وحده وما نحن إلا مستخلفين عليه، يخلف بعضنا بعضاً إلى أمد يعلمه الله وحده ثم نبعث لنحاسب على ما فعلنا يوم الدين، ومالك يوم الدين هو الله وحده؛ أما نحن فليس لنا مما ظننا أننا امتلكناه في الحياة الدنيا إلا عملنا فيه فإن أحسنَّا أحسنَّا لأنفسنا وإن أسأنا فعليها وما ربك بظلام للعبيد، فكل سيجزى بما عمل فيما خلقه الله له واستخلفه فيه، قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ۝٥٤ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٥ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: 53 – 56]. فالله هو الرازق ذو القوة، فما حصلت عليه لم يكن بقوتك وقدرتك ومهارتك إنما بتيسير منه تعالى.

وقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

تموت الأُسْدُ في الغابات جوعاً
ولحم الضَّأن يرمى للكلاب

فهل ماتت الأُسود جوعاً لضعفها، وهل أكلت الكلاب لحم الضأن بقوتها؟

الحكمة في الرزق:

لو تأملنا في حياة الحيوان حولنا، ولنأخذ من المثل الذي ضربه لنا الإمام الشافعي عبرة، فماذا سنجد؟

إننا نرى كلاب الأزقة والشوارع الشرسة القوية تأكل من الكناسة والمزابل ويرميها الصغار بالحجارة وتلاحقها عربات البلديات لنقلها وتنظيف الشوارع منها؛ والكلاب الصغيرة التي لا قوة لها والتي لو تركت في الشوارع لمزقتها الكلاب الشرسة تمزيقاً، هذه الكلاب الصغيرة نجدها تجلس في أحضان السيدات هانئة مرتاحة يأتين لها بالأطباء وبأفضل الأطعمة المنتقاة ويتقين لها الزينة الخ...

الأولى قوية قادرة وشرسة ومع ذلك فهي لا تكاد تحصل على طعامها حتى يطاردها هذا وذاك، والثانية ضعيفة صغيرة ومع ذلك يأتيها رزقها رغداً وتعيش على الأسِرَّة، ألا يكفيك هذا لتدرك أن الرزق لا يأتي لا بالقوة ولا بالقدرة والمهارة وإنما بتقدير ﴿ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 58].

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: 78]؛ فهل ما حصلته بعد ذلك من رزق أو علم قد حصلت عليه بمهارتك وذكائك، أم أنه حتى هذه المهارة والذكاء والعلم هو رزق من ذي القوة المتين.

ألا يوجد بيننا من هو أقوى منا جسديًا، وأمهر وأذكى وأعلم ومع ذلك لا يحصل على ما نحصل عليه من رزق؟

انظر إلى قوله تعالى في سورة الملك: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: 15].

لم يقل عزَّ وعلا: «وكلوا من رزقها» لأن الأرض لا تخرج الرزق وحدها وبقدرتها، إنما قال: ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ كي نفهم ونعلم أن الرزاق هو الله تبارك وتعالى، فهو الذي قدَّر هذا الرزق في الأرض، وهو الذي تفضَّل به علينا، إنما علينا السعي للتحصيل؛ ولو أننا كنا نملك هذه الأرض ملكاً فعلياً كاملاً لما كان علينا أن نسعى. هل كان ذلك الكلب القوي الذي لا يكاد يحصل على قوته كافراً، والكلب الصغير المدلل عابداً لله؟ الكلاب كلها ككل الحيوانات تعبد الله غريزة وطبعاً، ولكن الله يرينا ذلك لنتعظ ولنفهم حكمته في الرزق وأنه هو الرزاق وحده لا شريك له.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ۖ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: 26]؛ فالرزاق هو الله، وخزائن الرزق عنده، قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: 22]؛ لم يقل وفي الأرض رزقكم لأن الرزق عنده، وهو الذي يقدره لك في البر أو البحر أو حيث يشاء وأنت مستخلف فيه وعليك أداء الحساب.

عواقب الاستكبار:

يقول تبارك وتعالى للإنسان: «يا ابن آدم خلقت كل الكون لك وخلقتك لي فلا تنشغل بما هو لك عمَّا أنت له؛ فأنا المالك وأنت لا تملك شيئاً».

انظر إلى قارون وما آتاه الله من المال الذي ما زالت تضرب الأمثال إلى يومنا بكثرته: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: 76 - 77] فماذا كان جوابه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ [القصص: 78].

هذا الرجل الذي أعطاه الله كل هذا المال، بدل أن يترك البطر والفساد ويحمد الله على نعمائه ويستعمل هذه الثروة فيما أمره الله يستكبر ويدَّعي أنه حصَّل كل هذا بعمله وقدرته ومهارته.

لقد نسب الفضل لنفسه ولم ينسبه لربه، وبدل أن يشكر استكبر، فماذا حل به وبماله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: 81] فأصبح أثراً بعد عين، وعبرة لغيره وعظة بعد كل ذلك الاستكبار والتعاظم.

المالك الحقيقي:

لو أن شرطيًا أوقفك وأنت تقود سيارة فارهة، فأول شيء سيسألك عنه هو رخصة السيارة، فتقدمها له، ينظر إليها ثم يتطلع إلى رخصة السواقة خاصتك فيجد اسماً غير اسمك فيسألك: هل أنت مالك السيارة، وما دامت الأوراق بحوزته فلن تقدر على الكذب بل ستقول له: لا، لست المالك، أنا سائقها، أو أنا قد أستأجرتها أو هي أمانة عندي إلخ... وكل هذا يعني أنك لست المالك الحقيقي لها وإن كنت مخولاً باستعمالها أو مستخلفاً من مالكها عليها.

الدار التي تسكنها، هل تقدر على تغيير شيء فيها بدون إذن مالكها؟ أبداً، مع أنك مستأجر وتدفع الإيجار بانتظام. المال الذي أنت موكل فيه من قبل الشركة، هل تقدر على أن تصرفه في غير الوجوه التي أمرك صاحب الشركة بصرفها فيه؟ المال في جيبك أو في عهدتك والمفاتيح معك، ومع ذلك لا تقدر على التصرف فيه كما تشاء لأنك مستخلف فيه ولست المالك الحقيقي، فإن تصرفت على هواك وخالفت أوامره إليك، حوَّلك للتحقيق فوراً واتهمك بالتبديد إلخ، وانتهيت إلى السجن.

وصاحب الدار التي تسكنها والشركة التي تعمل بها لو تصرف بماله بغير الطريقة الصحيحة لسقطت الدار على من فيها، وأفلست الشركة وتعرَّض الاثنان للحساب والعقاب أيضاً.

قد يقول مالك البناء، هذه داري وعمارتي وأنا حرٌّ بها، فتقول له الدولة: أبداً، لست حرًّا فهناك حقوق عليك أن تؤديها قبل ذلك للمستأجرين، والبلدية، و... وإلخ... وعليك أن تحافظ على سلامة من حولك وما حولك من أبنية إلخ...

وصاحب الشركة إن حاول تخريبها وجعلها تفلس فسيأخذون على يديه لأن هناك حقوقاً للضرائب والموظفين إلخ...

كلنا مستخلف فيما يملك، وليس له أكثر من ذلك، أمَّا المالك الحقيقي فهو الله وحده، فما جمعناه من مال سنتركه ونمضي ويصبح بعدنا تركة يرثها غيرنا، وما بنيناه من دور وقصور سنخرج منه لنحل في رمس، ويسكنها غيرنا.

النفس تبكي على الدنيا بعدما علمت
أن السعادة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها
إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنها
وإن بناها بشر خاب بانيها

رخصة للمعصية:

ذهب رجل إلى إبراهيم بن أدهم وهو رجل من العباد والصالحين، فقال له: يا إبراهيم ألا أجد عندك رخصة لي، أعصي بها الله دون أن يعذبني؟

قال إبراهيم رحمه الله: لدي رخصة لك لتعصي الله دون أن يعذبك، لكن بشرط أن تضمن لي خمسة أشياء، فإن استطعت أن تنفذ هذه الشروط الخمسة كان لك بعدها ما تشاء.

قال الرجل: أنا موافق، فهاتِ الأولى.

قال إبراهيم: إن أردت أن تعصي الله فلا تقعد في أرضه؟

نظر الرجل حوله مفكراً، ثم قال: وأين أذهب، وكل أرض أذهب إليها وكل مكان يمكن أن أقيم فيه هو لله.

قال إبراهيم: أما تستحي أن تعصي الله وأنت ضيف على أرضه؟

قال الرجل: صدقت، فهذه لن أقدر عليها، هات الثانية.

قال إبراهيم: إذا أردت أن تعصي الله فلا تأكل من رزقه.

قال الرجل: وماذا آكل إن لم آكل من رزق الله، وكل رزق في الأرض من رزقه؟

قال إبراهيم: أولا تستحي أن تعصي الله وأنت ضيف على أرضه وتأكل من رزقه؟

قال الرجل: صدقت، هذه أيضاً لن أقدر عليها، هات الثالثة: فقد يكون لي فيها مخرج أو منفذ.

قال إبراهيم: إذا أردت أن تعصي الله ولا يعذبك، فاستتر حتى لا يراك.

قال الرجل: وكيف أستتر منه، وهو يرى ويعلم ما في نفسي؟

قال إبراهيم: أو لا تستحي أن تعصي الله وأنت ضيف على أرضه وتأكل من رزقه، وهو يراك أينما كنت؟

قال الرجل: صدقت، فهات الرابعة.

قال إبراهيم: إذا جاءك الموت، وكنت على المعصية، فاطلب منه أن يؤخرك حتى تتوب.

قال الرجل: وكيف يمكنني ذلك يا إبراهيم والموت يأتي بغتة، وملك الموت لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها؛ وأمره الله بقبضها؟

قال إبراهيم: أما تتقي الله والموت يأتيك بغتة لا تدري له زمناً ولا ميعاداً؟

قال الرجل: صدقت فهات الخامسة، فلعل في هذه الأخيرة أملاً.

قال إبراهيم: إذا قامت الساعة، يوم القيامة، وجاءت زبانية النار تريد أخذك إلى جهنم فلا تذهب معهم.

قال الرجل: وكيف ذلك يا إبراهيم، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ولا يمكن لأحد أن يمتنع منهم.

قال إبراهيم: لقد حيرتني فيك وفي أمرك يا هذا، أما تستحي أن تسكن في أرض الله وتأكل من رزقه ولا تقدر على الاستتار منه، ولا تأخير موعد موتك لتتوب ولا دفع ملائكة العذاب عنك ومع ذلك تريد أن تعصي الله.

قال الرجل: صدقت، صدقت يا إبراهيم، أستغفر الله العظيم وأتوب إليه.

واجبات المستخلف:

قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7] فالله قد استخلفنا في هذا الرزق الذي آتانا، وأمرنا أن ننفق منه في سبيله، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195]، ونحن نلقي بأيدينا إلى التهلكة بالبخل وعدم أداء الزكاة والصدقات التي أوجبها الله علينا، وقال تعالى: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: 33]، هي أموال الله وليست أموالنا، ونحن مستخلفين فيها فقط، والوكيل ملزم بتنفيذ تعليمات الأصيل وإلا اعتبر خائناً للأمانة مستحقاً للعقاب؛ لذلك علينا أن نراجع حسابنا دائماً لنعرف إن كان حساباً مديناً فإن كان كذلك فهذا يعني أننا مقصّرين وسنأتي يوم القيامة ويوضع الكتاب قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49].

عبادة ألف عام:

أخبرنا رسول الله ﷺ عن رجل ممن كان قبلنا، عاش ألف عام متنسكاً يعيش في ظل شجرة قرب نبع، يأكل من الشجرة ويشرب من النبع وقد اعتزل الناس.

عندما حانت ساعة حسابه، قال الله عزَّ وجلَّ لملائكته: أدخلوا عبدي برحمتي إلى الجنة.

استغرب الرجل كيف لا يدخل الجنة بعمله وهو قد عَبَدَ الله ألف عام فقال للملائكة: بل أدخل الجنة بعملي.

فقال الله عزَّ وجلَّ لملائكته: حاسبوا عبدي.

أحضر الملائكة نعمة البصر أولاً، فوضعت عبادة ألف عام في كفة ونعمة البصر في كفة فرجحت، فصرخ العابد خائفاً: برحمتك، برحمتك يا رب.

قال الله عزَّ وجلَّ: يا ملائكتي أدخلوا عبدي الجنة برحمتي.

ونحن مهما عملنا وعبدنا وتصدقنا فلن نؤدي حق نعم الله علينا: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: 34]؛ ولذلك نجد المؤمنين: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: 16].

وكان رسول الله ﷺ يقول لأصحابه: «لن يدخل أحد

الجنة بعمله» فقالوا: حتى أنت يا رسول الله؟ فقال: «حتى أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل». صدق رسول الله ﷺ.

كل يوم يدنينا من الأجل ونحن نفرح بشبابنا، وصحتنا وننسى أن كل يوم يمضي يقرِّبنا من ساعة الحساب.

اللهم اجعلنا يوم القيامة من الفائزين، ولا تفضحنا يوم العرض عليك يا أرحم الراحمين ولا تقبضنا إلا ونحن مسلمين مؤمنين مفوضين الأمر إليك في كل حين.

وصلِّ اللهم وسلِّم على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين واغفر لنا ولجميع المسلمين إنك نعم المولى ونعم النصير.